إبراهيم عبدالجليل الإمام

أسلير



رواية

أستبد

رواية

إبراهيم عبد الجليل الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

أشليد - إبراهيم الإمام

الطبعة الأولى 2015 م.

تصميم الغلاف الفنان المهندس : عبدالحفيظ الثني .

رقم الإيداع المحلي : 61/ 2015 دار الكتب الوطنية

الرقم الدولي الموحد : ردمك 9789959114518 ISBN

دار الكتب الوطنية - بنغازي – ليبيا

طباعة – الدار العالمية – اسكندرية

هاتف : 9090509 -9096379 -9097074

بريد مصور : 9097074

البريد الالكتروني : nat_lib_libyahotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء :

إلى أولئك الذين زرعوا فينا بذرة الحكمة ..

إلى الذين سقوها بدماء التجارب ورعوها بعيون الحب

إلى الذين استظلوا بظلالها وجنوا ثمارها ..

إلى الذين سيتلذذون بها ويستمتعون بطعمها

أقدم إليكم عملي المتواضع .

محسن يوسف الدويشي

كهولة

العمر يصيب كل شيء يمر به ويضعفه .. ما عدى الحكمة

فإنها تزداد قوة بمرور السنين .



1

دفع باب البيت .. ولج السقيفة المعتمة .. أطلق التحية .. لم ينتظر رد صاحبها المستلقي مستدرجا سلطان النوم .. جلس متكئاً بتكاسل مفسحا مكانا لضيفه الجلوس فوق المصطبة .. سأله :

- لمَ يكلف زعيم الواحة وكبيرها نفسه عناء الحضور إليّ في وقت القيلولة الذي يجرّم الأسلاف الخروج فيه إلا لأمر جلل ؟.

- هه هه هه .. ذاك التجريم يخص الأطفال يا حكيم الواحة وليس من اجتاز كل هذه السنوات ومنحته كل تجاربها .

شاركهم الصمت عتمة السقيفة الباردة .. استحثه على البوح بسبب زيارته الغريبة التوقيت .

- لِمَ لم يطلب الزعيم أن أزوره بدل أن يكلف نفسه كل هذا العناء خصوصا وهو في هذا العمر ؟.

ضحك لدعابته فأجابه :

- كلانا أبناء جيل واحد .. بل وشاغة[1] واحدة .. ستعاني ما كنت عانيته أيضا .

عاد الصمت ليستحوذ على السقيفة .. نسمة باردة تسللت من الزقاق أنعشتهما :

- الحيرة بادية على الزعيم .
- كيف رأيتها في هذه العتمة ؟ ههه ههه ههه .

---

[1] - اسم يطلقه أهالي غدامس لمواليد نفس العام .

- لم أنل لقب الحكيم عبطا ... كما إني لست بحاجة لضوء لقراءة ذلك ومعرفته بوضوح .

- إنه العمر يا حكيم .. العمر يجري وينساب من بيننا دون أن نتفطن له .

- صدق الزعيم .. أخشى أنك تفكر في اعتزال الزعامة والركون إلى الدعة والسلامة بين أحضان عجوزك هههه.

- لو لم أعتزل طواعية لعزلتني الحياة جبرا ..

- هذه سنة الحياة ذات يوم سنغادرها كلنا ..

- ذات يوم ستحتاج الواحة زعيما آخر يقودها ..

تنهد قبل أن يضيف :

- هذا ما جئت من أجله لحكيم الواحة في وقت يحرص فيه الجميع على الاستمتاع بطقس القيلولة .

عاد الصمت ليأخذ مكانه بينهما .. تسللت نسمات باردة من جديد.

- أنت تخشى أن تختلف الواحة بعدك ؟
- ألا تخشى ذلك أنت أيضا ؟
- هل لديك فكرة ما تجنب الواحة شر فتنة قد أكلت ذات يوم أعز الأبناء .. ورحل عنها الإخوان هربا من سعير زنارها ؟.
- هذا ما جعلني أتجشم هذا العناء .. أردت أن يظل الأمر بيننا .. لن أجد وقتا مناسبا خيرا من انتهاك قيلولتك للخوض في هذا الأمر .
- الأمر ليس بالهين .. العجلة سيما الشباب وصنوها الحماسة .. أنت بحاجة لبعض الوقت لاختيار شخص يكون فيه ما لا يوجد في الآخرين .. حتى يرضوا به

زعيما .. خلفا لزعيم كان له فضل استقرار الواحة كل هذه السنوات .

عاد الصمت ليجثم على المكان .. كان واضحا على الشيخين أنهما يبحثان عن حل في عتمة السقيفة .. لم يباليا بالنسمات الباردة التي انسابت في تلك اللحظات التي غابا فيها بحثا عن حل يجنب الواحة مصاعب ومصائب .. عاد الحكيم من رحلة الصمت بسؤال :

- هل ترشح أحدا ما تراه أهلا لهذا المنصب ؟
- في الحقيقة لا .. لكني أرغب أن يكون شابا حتى نجنب الواحة هذا المأزق لسنين طويلة .

سأله بعد أن استوى جالسا :

- هل سترضى عشائر الواحة باختيارك ؟
- هذا ما أخشاه .

- إذا لابد من امتحان.

- امتحان ؟

- قالت الأوائل بالامتحان يكرم المرء أو يهان .

- امتحان ماذا وإكرام من ؟

- امتحان من يرغب أن يتوسد أمر الواحة .. وإكرامه بهذا المنصب لا بد أن يمر عبر امتحان .. قطعا لألسنة السوء .. ووئدا للفتنة في رحمها لا في مهدها .

- من سيجري الامتحان ؟ .. وكيف يكون الامتحان ؟.

- لهذا جئتك .. أنت حكيم الواحة .. لا نرد لك مشورة .. ولا نقطع دونك أمرا .. ولا يختلف أحد على اختيارك .

قطع صمتا دام للحظات قليلة :

- كنت أعلم أن قدومك في هذا الوقت أيها الزعيم العجوز وراءه مصيبة تريد أن تتخلص من أعبائها في سقيفة بيتي هذه .

- ههه هههههه هل يتنصل الحكيم من خدمة واحته ؟.. لن يخذل الواحة كما عهدته .

عاد الصمت يلف السقيفة .. طال هذه المرة .. أذان العصر كان إيذانا بانتهاء اللقاء أيضا .

2

استقبلهم الحكيم في داره .. هذه المرة كان اللقاء في تمانحت[2] .. كانت جدران البيت عامرة بالمرايا .. ثرية بأواني النحاس المصقول .. مزدانة بزخارف حمراء .. بثت أطباق السعف في نظام غريب على كامل أرجاء التمانحت .. حملت بدورها رسوما أكثر غرابة وإبداعا .. بدا واضحا حرص الحكيم على أناقة داره .. طلب منهم الجلوس .. زودهم بنمارق جلدية .. جلسوا أمامه على كليم صوفي .. مخطط بألوان مختلفة.

---

[2] - صالة المعيشة في البيت الغدامسي تقع في الدور الثاني تفتح عليها أبواب غرف البيت مجهزة بشكل فني بديع .

استند الحكيم على جدار صدر البيت المليء برسوم قديمة قدم البيت نفسه .. نقشتها على سطح الجبس يد امرأة مجهولة .. لتشكل لوحة خفية المعاني لكنها جميلة في عين كل راءٍ .. في يمناه مروحة سعفية يستجلب بها نسمات تنعشه .. إلى جواره اتكأ الزعيم على وسادة صوفية .. متأملا رسوما على ظهرها .. في محاولة لفك لغزها .. ابتسم الحكيم في الوجوه الشابة قائلا :

- أربعة شباب .. هل هذا كل ما جادت به الواحة يا زعيمها ؟.

- كلا .. فقط هؤلاء من توسمت فيهم الرياسة وتبدو عليهم إمارات الزعامة يا حكيمها .

تأمل الحكيم الوجوه .. كانت أمامه أربع صفحات .. خالية من أي تعابير .. قرأ في محياها ما لا تخطأه عين

خبير .. كان الشيء الوحيد البادي على تلك الصفحات الشابة الغضة " النجابة والنباهة" .. اكتفى بما قرأه على تلك الصفحات فقال :

- لا أظن أنكم تجهلون الغاية من الامتحان .. زعيم الواحة يرغب في تجنيب الواحة فتنة اختيار زعيم بعده .. قد يتسبب ذلك في ما نحن في غنىً عنه .. العاقل هو ذلك الفطن الذي يسبق المشكلة بإعداد حل لها قبل أن تدهمه .. أما الغافل فهو ذلك الذي تقع عليه المشكلة فجأة ويعجز عن إيجاد مخرج لها .. فربما كلفه الخروج منها مالا يقدر على دفعه .. فالمشاكل عودتنا أنها تأتي بلا نذير يسبقها .. لهذا كلفني بامتحان من رأى فيه الصلاح لهذه الواحة ..

فهل أنتم مستعدون لما أنتم مقبلون عليه ؟.

كان أقرب الشباب إلى الحكيم هو أول من أسعفته الجرأة فكان أول المتحدثين :

- تعلمنا أن نخدم واحتنا دون انتظار الجزاء ولا الشكور .

انتقلت عدوى الجرأة لرفاقه تباعا :

- خدمة الواحة شرف لكل من وسد أمرٌ من أمورها .
- أرجو أن نكون أهلا لثقة الزعيم .. وأن ننجح ونوفق في امتحان الحكيم .
- لن ندخر جهدا في سبيل واحتنا وأمنها واستقرارها .

لم يُخفِ الحكيم ابتسامة الرضا .. التفت إلى الزعيم الذي لا يزال يبحث عن سر الرسوم الراقدة فوق ظهر وسادته فقال :

- أحسنتُ الاختيار على ما يبدو يا زعيم الواحة .

رفع رأسه عن الوسادة الثرية بالرسوم .. ارتسمت ابتسامة إعجاب على محياه قائلا :

- تعمدت أن أقحم الشباب في إدارة الواحة .. فهي بأمس الحاجة لحماستهم وأفكارهم .

عقب الشاب الأقرب جلوسا من الزعيم :

- لن تكون في غنىً عن حكمة شيوخها أيضا .

أجابه :

- هذا ما نخطط له .. نمزج حكمة الشيوخ بحماسة الشباب وإرادتهم .

تنحنح الحكيم .. استوى في جلسته .. توقف عن الترويح بمروحته السعفية :

- تعرفون واحتنا وما تحظى به من أهمية واهتمام .

أجابه شاب :

- لا يخفى هذا على ذي عينين .

استطرد الحكيم في حديثه :

- تعلمون كذلك مدى حسد الآخرين لموقع واحتنا .. ولا يخفون حرصهم على أن يستولوا على هذا الموقع بكل ما أوتوا من قوة وحيلة .

أجابه شاب آخر :

- هذا كذلك جلي وواضح .

واصل الحكيم :

- تاريخ واحتنا يشهد بكثير من المحاولات التي باءت بالفشل من رغبة الآخرين في السيطرة عليها .

رد الشاب الثالث :

- هذا بفضل حنكة الأجداد وحكمتهم وبراعتهم في إدارة شؤون الواحة .

مروح بمروحته قبل أن يستأنف الحكيم :

- لهذا طلبناكم .. نرغب في تفادي الفوضى ونبحث عن دوام الاستقرار .

تدخل الزعيم هذه المرة :

- نرغب أن نولي أمر الواحة من يستحق ذلك .. بل الأجدر في ذلك .. وهذا لا يتأتى إلا بالتجربة .. ربما أخطأنا في الماضي بعدم إقحام الشباب في أمور الواحة ليمنحهم ذلك خبرة لهم يستفيدون منها إذا تولوا أمر الواحة .. لكننا نحاول أن نستدرك ما فاتنا .

سأل الشباب بلسان أقربهم للحكيم :

- كل شباب الواحة مستعدون لتقديم كل ما يستطيعونه من أجل الواحة .

تحدث الزعيم بحدة :

- نحن لا نريد ما يستطيعونه .. بل كل ما هو ممكن فعله .

أمن الشباب برؤوسهم على تعقيب الزعيم .. استلم الحكيم الدفة من جديد :

- نحن نبحث عن السر .

استفسر أحد الشباب :

- سر ؟

- نعم .. السر الذي من أجله يتكالب الجميع على السيطرة على هذه البقعة من الأرض .. رغم صغرها .. السر الذي جعل من هذه البقعة الصغيرة قطبا للرحى في هذه الصحراء الممتدة .. رغم وجود مثيلاتٍ لها وربما أكبر منها .. لكنها لا تحظى بما تحظى به هذه البقعة .. لابد أن هناك سرا في الأمر .. قد يخفى على البعض .. لكنه بالتأكيد لن يخفى على من سيتولى أمر هذه البقعة .

أضاف الحكيم بعد أن مروح بمروحته جالبا ما ينعشه من هواء :

- ستغادرون الواحة .. كل في جهة من جهات الأرض الأربعة .. ابحثوا عن السر .

أكد الزعيم على كلام الحكيم :

- عودوا لنا بالسر .

أضاف الحكيم :

- معرفة السر تمكن صاحبها من إدارة الواحة على أحسن وجه وأكمله .

سأل الشاب الأقرب مجلسا من الزعيم بحماس :

- في أي الجهات الأربع يوجد السر ؟

- السر ليس في جهة بعينها ولا مكان ما .. السر تكتشفه من مشاهداتك واحتكاكك بالآخرين .. لتقف على أهمية واحتك عليك أن تعرف ما يفتقده الآخرون .

أكد الزعيم على كلام الحكيم :

- عليكم البحث عن الشيء الذي يفتقده الآخرون ولا يجدونه إلا في واحتنا .

3

انفض سوق الواحة ..

غادرت القوافل .. بعضها عائدة إلى مواطنها التي جاءت منها .. حملت ما ابتاعته من أسواق الواحة .. بعضها الآخر يخرج من الواحة في رحلة مجهولة

المصير .. مجهولة النهاية .. لكنها تخرج على أمل أن تعود محملة بالنجاح في مسعاها .

اختارت كل منها جهة من الجهات الأربع .. حملت معها أربعة شباب .. اختار كل منهم وجهته .. يتقمصه حلم مهم بالوصول إلى قمقم السر وفض خاتمه .. شباب نبيه .. سر يجهلونه الآن .. عليهم أن يعود بعد أعوام .. يحمل كل منهم قمقمه المفضوض الخاتم ..

انتشر خبر الامتحان في أرجاء الواحة .. دعت لهم الأمهات سرا وجهرا .. تمنى لهم الكهول حظاً وافرا من النجاح .. اغتاظ بعض أقرانهم على شرفٍ فاتهم حوزه .. فرح باقي أقرانهم على هذا الاختيار وباركوه.

4

الشيء الوحيد الذي يعجز الإنسان عن تقدير ثمنه هو التجارب .. فهي لا تقاس بالسنوات ولكن بالمكتسبات .

الانتظار كان مرّا كما تقول الحكمة القديمة .. مرت سنواته بتثاقل وخوف .. زاد من ثقلها عدم معرفة منتهاها .. أما الخوف فكان نابعا من خشية الفشل .. لم يكن الصبر كافيا فكان الدعاء معينا على تجرع غصص الانتظار وما أكثرها وأشدها على النفس ... لكنها كسائر الأشياء تسير ولا تتوقف وتنتهي ولو كان سيرها بطيئا ..

عادوا تباعا ..

عادوا رفقة قوافل لا تكل ولا تمل من قطع كل تلك الصحاري القاحلة .. لم يلتئم جمعهم إلا بعد وصول رابع المغادرين .

جمعتهم تمانحت بيت الحكيم من جديد .. على الرغم من مرور سنوات كثيرة إلا أن البيت احتفظ بأناقته السابقة ..

كان اللقاء هذه المرة مختلفا عن الذي سبقه بتلك السنوات .. الاختلاف لم يكن في الوقت فحسب بل في الهيئات .

تقابل الفريقان .. وجها لوجه ..

فريق يحمل في رأسه أسئلة ينتظر أجوبتها من الفريق المقابل .

فريق ينتظر حُكما عادلا على تجربة خاضها طيلة سنوات اغتراب .. دفع لاكتسابها ثمنا باهضا .. سنوات من العمر بعيدا عن الواحة والأهل ..

فريق يبحث عن عاتقٍ يُحمّله وزر أمانة ناء عنها كاهله ..

فريق ينتظر أن تحط على كاهله شرف رسالة .

راقب الحكيم الوجوه .. تمعن فيها قرأ ما كتب على صفحاتها .. تلك الأسطر الخفية التي لا يمكن إلا لأمثاله قرأتها والوصول إلى فحواها ومعناها .. أسطر لغتها مكتوبة بمداد التجارب .. مسطورة بأقلام المحن .. انتقل ببصره وبصيرته من صفحة لأخرى .. ابتسم .

الزعيم بدوره كان جالسا في نفس الضفة إلى جوار الحكيم .. يتكأ بسنواته التي تجاوزت الثمانين على

وسادة .. يتمعن في الصفحات الشابة التي أمامه .. يقرأ ما بثته من معانٍ .. رغم وهن أصاب العينين في تلك السنوات .. إلا أن ذلك لم يمنعه من رؤية ما جعله يبتسم هو الآخر .

على الضفة المقابلة جلس أربعة شباب على نمارق جلدية .. ينتظرون امتحانا عصيا .. كلفهم للوصول للنجاح فيه سنوات من عمرهم بحثا وتمحيصا وتجربة .. اكتست سحنهم الجديدة لباس الجد والجهد .. أزواج العيون تشي بما في نفوس أصحابها .. صفحة الوجه رسمت ملامح ممزوجة بين الفطنة والتجربة .

قرأوا بدورهم ما نقشته السنون على صفحتي وجهيهما .. بدت آثار السنين واضحة .. أكلت منهما مأكلا عظيما .. أوهنت منهما العظم .. اشعلت رأسيهما

شيبا وأثقلته حكمة .. أضفى بياضه وقارا مستحقا على ملامحهما.. زادت الكثير من التضاريس والخطوط لتلك الوجوه .. احتفظت بذلك البريق الذي لا تراه إلا في وجه زعيم أو حكيم ..

ابتسموا بدورهم ردا على ابتسامات أهل الضفة الأخرى .

5

قطع الزعيم صمت المتأملين بقوله :

- نحمد الله على سلامتكم .. كما نرجو من الله أن تكونوا وفقتم في رحلاتكم .

أضاف الحكيم مشجعا :

- الوجوه تحكي كلاما لا تنطقه الأفواه .. ربما لا تراه العيون أيضا .. أرى النجاح رسم خطوطه على صفحات وجوهكم .

عاد الزعيم ليقول :

- متي يبدأ الحكيم اختباره ؟ .. خشيت أن يداهمنا داهم الموت قبل عودتهم .. لكن نحمد الله من جديد .

كان ذلك إيذانا من الزعيم بالبدء في الاختبار .. تنحنح قبل أن يقول :

- كان الغرض من سفركم واضحا وجليا .. ببساطة كنا نرغب في معرفة الشيء الذي يفتقده الآخرون ولا يجدونه إلا هنا .. فهلا حدثتنا عن تجربتك يا بني .

أشار لأقربهم مجلسا له .. تنحنح الشاب بدوره قبل أن يبدأ حديثه عن تجربته ورحلته .

السوق

" ما يعرفه الناس عن التاجر هو رغبته المتزايدة والمتنامية في طلب الربح والمكسب .. وهذا ما يشاركه فيه باقي البشر ولكن على درجات متفاوتة "

1

كان اختياره أولا للامتحان أعسر امتحان .. تنحنح استدرارا لبعض الشجاعة .. تمكنه من الحديث أمام أنظار زعيم واحة يبحث له عن وريث .. وعلى مسامع حكيم واحة يبخث عن مجرب .. ليلقيا على عاتقه أهوال الواحة القادمة .. استجمع بقايا شجاعة أزالت شيئا من الحياء في معركة قصيرة .. تمكن أخيرا من الحديث :

- كان اختياري لهذا المقام شرفا سررت له كثيرا ..

قبل أن أغادر الواحة للبحث عن السر .. طفت أرجائها .. شارعا شارعا بل زقاقا زقاقا .. سألتُ رجالها

وشيوخها .. غادرتُ الواحة ممتطيا قافلة متجهة شمالا .. فالخطر دائما كان مصدره الشمال كما حدثوني فيممت نحوه ..

2

كان من السهل مرافقة قافلة متجهة نحو الشمال .. فالقوافل لا تتوقف عن الوصول لسوق تضكو[3] المنعقد طوال العام .. بل كان لي فرصة اختيار القافلة التي تناسب رحلتي .. فاخترت تلك المتجهة نحو طرابلس .. اخترت قافلة صغيرة فهي الأسرع في قطع تلك المفازة من القوافل الكبيرة .. فالقافلة الصغيرة تصل إلى هدفها

[3] - كلمة تصكو تعني السوق بلغة غدامس القديمة .. يقع هذا السوق وسط واحة غدامس القديمة كان مقصد قوافل الشمال والجنوب .. كانت به ايضا الساعة المائية المسماة بالقادوس التي كان اهل الواحة يحسبون بها الوقت قبل اكتشاف الساعات الحديثة بوقت طويل جدا .

مباشرة .. أما الكبيرة فهي ستمر بأسواق عديدة في الطريق تخفف من حملها الذي تزودت به من سوق تصكو الذي يعج ببضائع أمم الصحراء وأمم البحار ..

سارت الرحلة في مسارها المعتاد .. دخلت طرابلس .. كانت رحلتي الأولى لتلك المدينة .. استقر بي المقام في خان رفقة صديق من التجار .. لم يكن هدفي من الرحلة هو البيع والشراء بل البحث عن السر .

3

بدأت رحلة البحث بعد أن استقرت أوضاعي ورتبتها على أحسن وجه ممكن .. تجولت في شوارع طرابلس سرتُ في أزقتها .. صليتُ في مساجدها .. طفتُ أسواقها .. وقفتُ لساعات متأملا بحرها .. كانت

ولا تزال أهم محطة لقوافل الواحة وأهم سوق لتجارة الواحة ..

وجدتُ أنه من السهل اكتشاف أنها تتوسط أمم البحر كما تتوسط واحتنا الصحراء ..

السر يبدأ من هنا .. من الاسم !

4

استوقفني الاسم .. بحثت عن كنهه ومعناه .

المعروف أن الإنسان يتأثر بالاسم الذي يحمله معه طوال حياته سلبا وإيجابا .. له تأثير بالغ على شخصه وشكله وجوهره .. وهذا يفسر وصايا النبي صلى الله عليه وسلم عن تحسين أسماء الأبناء .. بل وحرصه

على استبدال أسماء بعض أصحابه بأخرى أجمل وأحسن وأفضل دلالة ..

فكان لابد أن أبحث عن معنى الاسم لأبدأ منه رحلة البحث عن السر .

الاسم الذي تحمله لم يطلقه عليه أهلها .. بل كان وصفا لها .. لم يكن اسمها الذي نشأ مع بداياتها .. اختفى اسمها "**أويا**" بعد أن كبر قدر المدينة .. لم يعد يكفي لحمل الحمل الجديد الذي حملته المدينة القديمة باسمها القديم .. فحملت اسما جديدا تري بولي .. صارت مع الوقت " **ترابولس** " .. تطورت بتطور العمران والناس لتستقر على هذا الاسم الجديد طرابلس .. يليق بمكانتها الجديدة ..

كان المعنى واضحا بعد إرجاع الاسم لأصله .. فـ " **تري بولي** " تحمل معنى " **المدن الثلاثة** " .. فأين الأختان الأخريان لتكتمل الصورة ؟ .

كانت الأخت الكبرى لأختين آخريين .. يرقدن أيضا على نفس الساحل .. نشأن بعدها وكبرن بعدها .. واحدة غربها عرفت بـ " **سبراتة** " .. بينما الأخرى شرقها سميت بـ " **لبدة** " .. توسطتهن أويا ..

كانت الأخوات الثلاثة محط أنظار العالم كله ومطلب ومقصد كل تاجر .. كن من الترابط والتنافس حتى صرن ثلاثا في واحدا أو واحدا موزعا على ثلاث .. فصار اسم المدن الثلاث "تري بولي" اسما راق للتجار أولا أن يسموا به المنطقة كلها .. فتبعهم الناس بعد ذلك .

5

غادرت أمة الإغريق ديارها بعد أن ضاقت عليها بحثا عن أسواق جديدة .. جابت البحار بحثا وتنقيبا .. رست سفنها على ذلك الساحل الأزرق الدافئ .. كان ذلك غاية مطلبها .. سحرتها رائحة السلفيوم الأسطوري .. فرمت مراسيها وحطت رحالها .. استقر بها المقام ..

لم يكتفوا بإنشاء سوق واحد بل خمسة .. فكان لبنة لمدنهم الخمسة التي حملت المنطقة أيضا اسما يدل عليها معا " **انطا بولي** " .

لم يكن هواء المكان المنعش ولا السلفيوم الأسطوري وحده وسيلة جذب الناس للعيش هناك وترك أوطانهم .. بل ثراء أسواقهم بالسلع كان سببا مهما ..

فهمت روما بدورها اللعبة .. كان عليها أن تبحث لها عن أسواق جديد أيضا .. اكتضاض البضائع في سوق واحد يقلل من قيمتها .. فكان لابد من إيجاد أسواق جديدة لتصريفها .. خرجت تبحث لها عن موطيء قدم في الساحل الدافيء .. رست سفنها على الطرف الآخر من الساحل الدافئ .. فبنت أسواقها الثلاثة في المدن الثلاثة .

6

شددت رحلي يممتُ شطر المدينتين .. وقفتُ على عظيم الكارثة التي حلت بهما .. بعد أن كانتا مطلب الملوك .. صارتا أطلالا دارسة .. ممالك يغرد فيها البوم .

وقفت على سوقي المدينتين الغابرتين .. كانت الصورة واحدة .. أحجار متراكمة على بعضها .. لم يبق من السوق إلا ساحته .. غاب التجار .. اندثرت السلع .. خرس الدلالون .. خرج الناس بحثا عن سوق آمن .. ماتت المدينتان .

لا حياة بلا سوق ..

لاستمرار السوق لابد من سلع متجددة .. الأسواق تبتلع كل جديد .. لجلب السلع لابد من تاجر مغامر .. المغامرة هي روح التاجر .. لو فقد التاجر روح المغامرة ماتت التجارة .. موت المغامرة في قلب التاجر إيذان بفراغ الأسواق .. فراغ الأسواق أول مسمار يدق في نعش المدن .. تتهاوى بعدها وتتلاشى .

شُنتِ الحروب للسيطرة على الجارات الثلاثة .. رغب الجميع بامتلاكهن فجردوا السيف .. لتكسب ود مدينة ما عليك إلا أن تغزو سوقها .. هرب التجار من الأسواق بعد أن ارتفع صليل السيوف بالجوار للسيطرة على أحجار المدينة .. فعاقبهم التجار بالفرار .. خلت الأسواق فخلى العمران .

سقطت المدينتان في دياجير النسيان ..

ما حدث هنا لابد أنه حدث هناك .. لم يختلف مصير المدن الخمس عن غريماتها الثلاث .. زلن بعد أن زالت أسباب الحياة .. صرن أثرا بعد عين .

7

وحدها كانت الناجية من المصير .. الأخت الكبرى "أويا" .. السوق كان السبب أيضا .. لم تتوقف القوافل عن الوصول لتزويدها بحاجتها من السلع .. فكان ذلك سببا لحياتها وبقائها على الرغم مما قاسته من أهوال وحروب ودمار .. لكنها حرصت على بقاء سوقها عامرا .. بقاء التجار وإصرارهم كان سببا لبقاء الأخت الكبرى .. فرار التجار من أختيها كان سببا لخرابهما فصارتا قاعا بلقعا .

كان عليهم غزو الأسواق بسلعهم لتنتعش فغزوها بسيوفهم فماتت مدنهم وبقيت غيرها .

اختفت المدينتان المجاورتان وبقي الاسم .. احتفظت **أويا** بالاسم والمكانة وفقدت الشقيقتان المكانة واحتفظن فقط بالمكان .. كان ذلك بفضل السوق .

بقيتا ليقدما درسا للعابرين .

8

الخراب سببه الطمع .. أقصر طريق للفناء هو الجشع .. كانت غاية الأمتين الغريمتين وغاية مطلبهما السطوة والسيطرة .. كانت الأخوات الثلاثة هنا يبذلن جهدهن للسيطرة على العالم .. الأخوات الخمسة هناك كان لهن نفس الهدف وبنفس الطريقة .. فكان ذلك سببا في فنائهن جميعا .

الصراع على الأسواق كان سببا لكل الحروب التي كانت بين الأمم .. السيطرة على السوق يعني السيطرة على أهل السوق .. السيطرة على أهل السوق يمنحك حق التحكم في كل ما يجاور السوق ويعتاش من السوق .. بالسيطرة على السوق تحكم السيطرة على كل شيء .. فكان لابد من أسواق جديدة في كل مرة تكبر فيها التجارة .. السوق هو قلب المدينة .. إذا توقف السوق عن النبض ماتت المدينة .. السبب الحقيقي كان الصراع على الأسواق ..

كان خطؤهم فادحا لا يغتفر .. قرروا إحكام قبضاتهم على الأسواق .. حملوا سيوفهم وجردوا جيوشهم وحاصروا الأسواق .. بدل أن يغرقوا الأسواق بالسلع أغرقوها بالدماء ..

عاقبهم التجار بأن حرموا تلك الأسواق من سلعهم ..
وجهوا قوافلهم لأماكن أخرى .. فخاب مسعاهم ..
فخسروا كل ما جنوه ..

عليك أن تحسن لا اختيار البضاعة فقط .. بل
اختيار السوق المناسب لكل بضاعة .. فلكل سوق
بضاعته كما لكل تاجر سلعته ..

9

تصكو ليست مجرد سوق في واحتنا ..

بل هي السوق الجامع لكل الأسواق .. على الرغم من
صغر حجمه لكنه يملك ما يفتقدونه ويبحثون عنه ..

كانوا يبحثون عن سوق فقدوه وسمعة ضيعوها ..

10

منحه الحكيم ابتسامة .. فسرها بأنها ابتسامة رضاً .. اكتفى بها وارتضاها .. بحث في عينيّ الزعيم عن أي إشارة .. كانت ملامحه خالية من التعابير كعادة الزعماء .. كان راضيا عن تجربته .. لكنه كان يعلم أن هذا ليس كافيا ..

أشار الحكيم بمروحته للشاب الجالس عن يساره ..

الطين

" أخذ من الأفعى ليونتها ومرونتها ولزوجتها وكذلك قدرتها على تجديد جلدها .. أضافوا هم له شراستها ."

1

تنحنح بحثا عن مدخل يلج منه للحديث عن تجربته :

- منذ أن وقع عليّ الاختيار من الزعيم ظننت أنه اختارني لأمر هام .. فرِحتُ لهذا الاختيار الذي يُعد شرفًا لكلِ من يقع عليه اختيار الزعيم لخدمة الواحة .. أما بعد أن علمتُ أنه اختار ثلاثة آخرين تأكدتُ أن الأمر كبير .. لكن عندما حدثنا الحكيم عن الاختبار أيقنت أن الأمر عظيم .

رحلةُ بحثي عن السر بدأتها من هنا .. طفتُ الواحة كلها .. بحثتُ عن السر هنا .. في الشوارع الملتوية .. بين الأزقة الباردة .. في المساجد والتكايا والمصاطب .. في الوجوه .. وجوه الصبية .. ملامح الشيوخ .. ابتسامات العجائز .

وجدت السر يكمن في حب البقاء وكراهية الفناء .

كان السؤال الذي يلح على رأسي منذ أن كلفنا بالوصول إلى السر هو : لماذا بقينا وغادر آخرون ؟

قررتُ مغادرة الواحة بحثا عن سر كنتُ أعلم أني أستطيع الوصول إليه دون أن أتكبد عناء السفر .. لكن للسفر فوائد عديدة أخرى غير كشف الأسرار .

ربما كنتُ آخر من غادر الواحة من رفاقي .. كانت وجهتي جنوبا في أول الأمر .. كان علي إكمال فكرتي التي خرجتُ بها من بحثي في الواحة .

2

طُبعَ الإنسان على حبِ الحياة .. الكلُ يسعى للبقاء .. يهيئ له أسبابه .. الكثير من الأمم ضلت الطريق

لترياق البقاء فتجرعت سموم الفناء .. شربت الكأس بيدها لا بيد غيرها .

أحسنها حظا تلك الأمم التي فقدت ذاتها وذابت في أمم أخرى .. اختفت إلى الأبد .. لم يبق منها إلا الذكر .

البقاء كان السمة الوحيدة الذي اشتركت في طلبها وحرصت عليها كل الأمم منذ نزلت لتستقر على هذه الأرض .

للوصول لمعرفة أسباب البقاء كان عليّ أن أبحث عن نقيض البقاء .. غريمه الأزلي " **الفناء** " .

السؤال الذي خرجتُ لأبحث له عن جواب :

لماذا زالت تلك الأمم على الرغم من أنها امتلكت ناصية وأسباب البقاء ؟

لكنها سارعت نحو مقبرة الفناء بأقدامها .. تلاشت لم يبق لها أثر إلا ما تناقلته القوافل من أخبارهم واحتفظت به الجدات ترويه للأجيال المتعطشة دائما للحكايا .

اختلفت الأمم في معيشتها .. اختارت بعضها ضفاف الأنهار العذبة للعيش .. أمم أخرى لم يحلُ لها العيش إلا قرب سواحل البحار المالحة .. أمم كثيرة اختارت العيون .. لم تتق يوما بملح البحر ولا بعذوبة النهر .. سلمت زمام أمرها للعيون الفوارة المدرارة .

كان على تلك الأمم اختيار أحد أمرين للبقاء ..

الطين أو الحجر .

الاحتماء بالحجر .. أو الركون إلى الطين .

النقيضان ..

الطين كائن مطيع سهل الانقياد .. الحجر مخلوق عنيد .. يرفض الانصياع .. تقول الحكمة المجهولة الأصل :

" يوجد في الطين ما لا يوجد في الحجر " .

3

وصلت بي القافلة إلى **غات** .. الواحة القصية .. ودعتها وتركتها تكمل دربها نحو مجاهيل القارة السوداء .. أما أنا فكان هدفي أقرب من ذلك وأصعب .. من السهل أن تجد قافلة تشق دربها نحو العمران .. أما أن تكون غايتك الأطلال فمهمتك بالتأكيد ستكون صعبة وأحيانا مستحيلة .. لكني ذهبتُ .. كانت " **جرمة** " مطلبي وغايتي .

قطعتُ تلك الصحراء وحدي .. غامرتُ بالذهاب لتلك الأطلال الدارسة لتلك الأمة التي كانت ذات يوم عظيمة .. كان سبب دمارها هي هذه العظمة .. تجولتُ في بقايا العظمة التي زالت بسبب سوء التدبير .

عدتُ إلى **غات** بعدها .. سافرتُ مع قافلة متجهة جنوبا .. قصدتُ أمما جاورت النهر العظيم " نهر النيجر" .. وقفتُ على حياتها وعمرانها وناسها وشأنها كله .. عدتُ أدراجي بعد أن أشبعتُ فضولي .. توجهت إلى ديار أمة كانت ذات يوم فزالت .. صارت أثرًا بعد عين .. جاورتنا وكان لنا معها علاقات الجوار وربما ما هو أكبر وأعمق .. لكنها اختفت من عالمنا إلى الأبد أيضا .. بنفس السبب .. سوء التدبير .

قرطاجنة .. كانت ذات يوم فزالت ذات يوم ..

تكرر المشهد في المكانين .. جرمة وقرطاجنة .. وربما في أماكن أخرى .. لم يكن لي حاجة للذهاب لأي مكان .. فالسبب في كل الحالات واحد لا يتغير بل يتكرر .. سوء التدبير للبقاء هو ما جعلهم طعاما للفناء .

وجدتُ أنهم ارتكبوا نفس الخطأ .. فكان لهم نفس المصير .. في الحقيقة أنهم ارتكبوا أكثر من خطأ .. الأخطاء الصغيرة قد يكون فيها الفناء أيضا .. قد لا تشعر بخطرها إلا بعد أن تتمادى فيها .. ربما الجسيمة منها لا تؤدي إلى تلك النتيجة المفزعة .

خطؤهم الأول هو اختيارهم الخاطيء بين الخيارين :

الطين والحجر ..

فضلوا الصلابة على الليونة .. الشدة على المرونة .. فكانت الطامة عظيمة .

شيدوا ممالكهم بالحجر .. استكانوا له .

بنوا بيوتهم من الصلد .. أقاموا صلواتهم في معابد من حجر .. نحتوا تماثيل آلهتهم وخلدوا عظمائهم به .. حصّنوا أسوار مدنهم به ..

لم يمنحهم الحجر الأمان الذي بحثوا عنه .. خانهم .. وقف صامتا في وجه الغزاة .. بل أعانهم عليهم .. سقط على رؤوسهم .. زالوا .. بقي الحجر ركاما .

كانوا لا يثقون إلا بالحجر .. صلابته تبث في نفوسهم الأمان ..

4

يمنحك الطين ما يعجز عنه الحجر .

تفطّن أسلافنا لخطورة هذا المخلوق الصامت .. استبدلوه بذلك الكائن الصامد .

تخلوا عن الحجر بعد أن شيدوا به حصونا وقصورا .. قوضوه حجرا حجرا .. استبدلوه بالطين .. شيدوا به صرحهم العجيب ..

كان حصنا من طين .. قوته لم تكن في ضعف الطين بل في ليونته ومرونته .. تحوله .. قدرته على العودة إلى الحياة في كل مرة .

تعلمتُ من رحلتي شيئًا مهما .. لا أستبعد أن يكون الأسلاف قد توصلوا إليه قبلي .. أعتقد أن ذلك كان سببا مهما في استبدالهم الحجر بالطين .

الأرض تمنح ساكنيها صفاتها .. شخصيتك وجل صفاتك تكتسبها من محيطك الذي تعيش فيه .. باقي

التفاصيل ترثه عن الآباء والأسلاف .. إذا كان محيطك خشنا صرت كذلك .. أما إذا كان صلدا هذا ما يجعل منك صلبا .. أما الحياة في السهل فيجعلك سهل القياد والانقياد .. لهذا كانت المفاضلة بين الطين والحجر ..

فاز الطين بسهولة على الحجر فنال كل الرضا .

كان قرارا حكيما بل شجاعا .

تلك الأمم استعانت بالحجر في كل حياتها .. منحها الحجر صلابته وشدته وقساوته وعناده .. فكان ذلك سببا في هلاكها كما كان سببا في قوتها .. بينما منحنا الطين ليونته وسلاسته وسهولة تشكله وقدرته على التخلق والتشكل والعودة إلى الحياة من جديد .

استهانت تلك الأمم بالطين .. لم تقدره كما قدره أسلافنا..

5

انتصروا في معركتهم ضد الفناء .. على الرغم من أنهم سبقوا أمما كثيرة إلى الظهور في هذه الصحراء .. تلك الأمم رغم حداثتها لكنهم تسابقوا نحو الفناء .. لم يستفيدوا من السابقين .. تلاشوا .. طواهم الفناء .. أبقى لهم الفناء ذكرا في سجلاته .. لكن على الأرض لم يترك لهم إلا أطلالهم لتكون درسا للعابرين وعظة للمعتبرين .. لكن لا بقاء لمن لا يعتبر .

لم يبنِ الأسلاف هذا الصرح ليقيهم من همج الصحراء فحسب بل من هجوم الصحراء .. رملها وهوامها ووحوشها .

رغم تعرض الصرح لهجمات شرسة من الرياح والعواصف .. كان من السهل إعادة الصرح على ما

كان عليه بل أفضل مما كان عليه .. هذا ما يمنحه الطين وحده .. عكس الحجر يستحيل إعادته بعد تحطمه .. يحتاج الأمر لعزم شديد وهذا ما تفقده بمجرد تهاوي صرح الحجارة على رأسك ..

على الرغم من تعرض الصرح كذلك لهجمات الطامعين وما أكثرهم .. كان من السهل أن ينتصر ساكنوا الصرح على عدوهم بسلاحين استعاروهما من الطين :

سلاسة الطبع .

ومرونة التعامل .

يشترك الطين مع الأفعى في الليونة والمرونة وكذلك القدرة على تبديل الهيئة كل مرة .. كانت تلك

الخلطة التي يتوجب على الإنسان المخلوق من طين أن يكتسبها من الصرح المصنوع من طين ..

الأفعى أشرس كائنات الصحراء وأكثرها سكينة .. وفي نفس الوقت هي أفتكها بعدوها .. سكان الصرح كانوا مثلها في السكينة .. وصاروا أشرس منها عند الضرورة .

6

خطأ تلك الأمم الثاني كان خطيرا .. بل كان مميتا .. طغى عليهم حب الأمتلاك .. أرادوا امتلاك أي شيء وكل شيء .. لم يقنعوا بما وصلوا إليه .. ضاقت عليهم حصونهم .. غادروها بحثا عن المزيد من القوة .. كان ذلك سببا لمغادرتهم لهذا العالم الذي يسع الجميع .

غادرت جرمة وقرطاجنة حصونهما الحجرية .. بعد أن استأمنت للحجر ومنحته ثقة مطلقة لا يستحقها .. جيشت جيوشها وشحذت سيوفها بحثا عن تحقيق مآرب طالما راود غيرها من أمم زالت بسبب هذا المأرب القاتل .. دكت تلك الحصون الحجرية بالحجارة .. لا يدك الحجر إلا الحجر .. تساقطت على رؤوس ساكنيها .. تفتت التماثيل أمام عابديها .. انهارت الأسواق على مرتاديها .. لم يكن بالإمكان إصلاح الحجر ولا إعادته كما كان .. بينما الطين يمنحك فرصة إعادة خلقه في كل مرة يتعرض فيها لأسباب الفناء ..

كانوا يبحثون عن البقاء فكان ذلك سببا في الفناء ..

هكذا جرت أحكام القضاء .

7

منحه الحكيم نفس الابتسامة التي منحها لسابقه .. فسرها كذلك بأنها ابتسامة رضا .. كانت ملامح الزعيم خالية من التعابير كعادة الزعماء .. كان راضيا عما توصل إليه غاية الرضا .. كان يعلم أن هذا ليس كافيا ..

أشار الحكيم بمروحته للشاب الجالس عن يساره ..

الصفقة

" إذا فقد التاجر متعة عقد الصفقات تبدأ رحلته مع الخسارة ."

1

ما أن عرفتُ باختياري من قبل الزعيم لكشف اللثام عن سر يبحث عنه الآخرون عندنا .. لا يجدونه عندهم ويفتقدونه لديهم .. قررتُ أن أبدأ بحثي من هنا .. فمطلبهم موجود هنا وليس في أي مكان آخر .

شرعتُ في رحلة البحث عن السر بين أزقة الواحة وشوارعها .. أعدتُ طرح السؤال من جديد أكثر من مرة :

- ما الذي يبحثون عنه هنا ولا يجدونه عندهم ؟

استبدلت السؤال بآخر .. كان الأنسب للبحث عن جوابٍ له :

- كيف وصلنا لما نحن فيه الآن لنكون مطمعا ومطلبا للآخرين ؟ .. بماذا تميزنا عن أولئك الآخرين ؟

فكرتُ طويلا في الأمر .. قسته على ما تعلمته وسمعته وقرأته عن الأمم السالفة .. طرحتُ على مشائخي ومعلميّ الكثير من الأسئلة التي كنتُ بحاجة للوقوف على أجوبتها .. كان السر ينجلي شيئا فشيئا .

2

سافرتُ بعدها مع أول قافلة تجارية متجهة إلى تونس .. استقر بي المقام فيها .. التحقت بحلقات الدرس فيها .. خالطت علمائها ومشائخها وطلبة العلم فيها .. رافقت القوافل المتجهة غربا .. وصلت إلى المغرب الأقصى .. تجولت بين ربوعه وجباله .. زرت أسواقه

تحدثت مع ناسه .. في تلك البقاع الممتدة نشأت العديد من الدول .. منها ما عاش سنوات ومنها ما طالت دولته لأكثر من ذلك .. لكنها كلها درست وبادت واختفت .. لم يبق منها إلا ما كتبه عنها التاريخ .. كان سبب اختفائها واندثارها واحدا ..

تأكد لي ما استنتجته قبل خروجي من الواحة .

السر في الأمن والدعة ..

إنها الوصفة السحرية التي فشل الجميع في الوصول إلى تركيبتها ..

بين طيات الكتب الكثيرة التي قرأتها عن حكايات الأمم السالفة والشعوب الدارسة .. وجدتُ حرصهم على الوصول للسلام .. لكنهم أخطأوا الطريق إليه .. فاختاروا بذلك الوسيلة الخطأ للتركيبة .

الأمان مطلب الجميع ..

دفعوا قرابين غالية ثمنا له .. منهم من دفع دمه .. منهم من تخلى عن أعظم أعطية تحصل عليها الإنسان مذ حل على هذه الأرض : " الحرية " .. اكتشفوا بعدها أن الأمان الذي يفرط فيه الإنسان بهذه الأعطية أمان زائف.

3

قارنت دولهم الكبيرة بواحتنا الصغيرة .. كان الفرق شاسعا .. هذا الفرق هو الذي جعل تلك الأمم والممالك تندثر رغم عظمتها .. وتبقى واحتنا .. لم يثنها صغر مساحتها عن الوصول لأسباب البقاء ..

اختار أوائل هذه الواحة منذ عهود قديمة الأمن والحرية معا .. ليس لأحدهما ثمن إلا الآخر .. بحثوا عن التركيبة التي تؤدي إليهما معا .. توصلوا إليها .. لابد أنهم عانوا كثيرا للوصول إليها :

" لتكون حرا عليك أن تشعر بالأمن .. لتعيش آمنا لابد أن تكون حرا " .

تناقلت الأجيال والكتب القديمة الحكمة القديمة قدم الإنسان على هذه الأرض :

" القناعة كنز لا يفنى " .

فنت دول كثيرة واختفت شعوب عديدة في سبيل الوصول لهذا الكنز الذي تحدثت عنه الحكمة .. كان الخطأ في تفسير الحكمة وليس في الحكمة نفسها .. كانوا يبحثون عن كنزٍ لا يملكون خريطة الوصول إليه

.. على الرغم من أن الحكمة كانت واضحة غير مبهمة وليست بحاجة لخريطة .. لكن الإنسان لم يستطع التخلص من تلك الخصلة التي أودت به في مجاهل الفناء : " الطمع " .

الأمن هو ما أشارت إليه الحكمة .. الأمن كنز لا يقدر بثمن .. سلعة غالية .. للحصول عليها عليك التخلي عن تلك الصفة التي تسيطر عليك " الجشع " .

جميلٌ أن تكون قويا .. الأجملُ من ذلك أن تتمكن من السيطرة على تلك القوة حتى لا تؤدي بك إلى الفناء .. الشعور المفرط بالقوة جعلهم يبحثون عن مزيد من القوة .. المزيد من القوة يؤدي إلى المزيد من الطمع .. الطمع مقبرة القوة .. القوي هو الذي يلجم طمع نفسه ..

حينها سيحصل على أغلى كنز .. سيشعر بالأمان الحقيقي .

أشرس الحروب تلك التي اشتعلت من أجل الأمان .. كانوا يبحثون عن الأمان فأشعلوا مزيدا من الحروب .. الأمان ليس بحاجة لحروب من أجل فرضه وحفظه بل لقلوب تؤمن به .. اختاروا دائما الطريقة الخطأ للوصول إليه فكانوا دائما ما يحصدون الفشل .. لا أمان لطامع إلا بأن يقمع طمعه .

لا أحد يجهل ما في الحرب من مساوئ .. لا أعتقد أن أحدا وجد في الحرب حسنة واحدة إلا إذا كانت للذود عن النفس .. أما ما سوى ذلك فهي نوع من العبث .

من الغباء أن تخوض حربا لمجرد أن تعرف سيئات الحروب .. كما أنه لن ينعتك أحد بالذكاء إذا أحرقت نفسك لتثبت له أن النار شديدة الإحراق .. يكفيك أن ترى تأثيرها من حولك لتحكم حكما صحيحا قاطعا عليها.

4

موقع واحتنا الفريد في قلب صحراء شاسعة قاتلة هو ما جعلها مطلبا لكل طالب قوة .. امتلاكها يجعلهم يشعرون بمزيد من القوة وبكثير من السطوة .. كانوا على علم بأهمية موقعهم .. اكتشفوا منذ البداية أن هذه الأهمية هي سبب المطامع وأنها جالبة للمهالك .. فكان على الأسلاف حماية أنفسهم .. لم يجيشوا لذلك جيوشا ولم يشحذوا سيوفا بل كان عليهم أن يلجموا أطماع

الآخرين .. اختيارهم للتجارة مهنة جابوا بها الآفاق وتعرفوا على كل الأمم المجاورة أكسبهم حنكة في التعامل مع مثل تلك الأطماع .. كان ما وصلوا إليه من مكانة تجارية وسمعة سببا آخر لطمع الطامعين وكيد الكائدين فكان الحل في صناعة السلام .

من السهل أن يكون لك ألف صديق لا يأبه بك .. لكن من الخطير جدا أن يكون لك عدو واحد يتربص بك .. كان عليهم أن يكونوا أصدقاء للجميع .

5

السلام بحاجة لقلب يؤمن به ولقوة تحميه ولعقل يديره.

السلام ليس عقودا تبرم ولا مواثيق تعقد بل هو عقيدة تعتقد وشريعة تمارس .. قد تكبلك العهود .. قد

تفرض عليك هذا الخيار لكنك ستتنصل منها عند أول فرصة تلوح إذا لم تكن تؤمن به كخيارٍ وحيدٍ للحياة .

لتفرض السلام على الآخرين عليك أن تكون قويا في نظر الآخرين .. ما أن يشعروا بضعفك حتى تراودهم أنفسهم بانتهاكك فيتحينوا الفرص لإسقاطك في براثن طمعهم .

ليس من الضروري أن تكون قويا ليخشاك الآخرون .. ولا شجاعا ليهابوك .. يكفيك أن تكون مهما ليحترموك وهذا أقصى أنواع القوة .

عليك أن تشعرهم بقوتك وبحاجتهم إليك وأهميتك وإن كنت في واقع الأمر ضعيفا المهم أن لا تكون مهانا.

كان عليهم أن يكونوا ذوي أهمية للآخرين حتى يتمكنوا من بناء حصن يقيهم من أطماعهم .. كان حصنهم منيعا في وجه كل الطامعين .. بنوا حصنا من الاحترام .. كان أحصن بكثير من حصون الحجر وأقوى من كل الجيوش .

نمت شجرة السلام في قلوبهم .. ترعرعت فامتدت أغصانها جيلا بعد جيل .. مدت ظلا وارفا على حياتهم .. صارت طقسا يوميا بل عقيدة يؤمنون بها .. وليست مجرد هوى في نفوسهم قد يزول عند أول عارض .

لم يكن السلام خيارا اتخذوه فقط بل شريعة آمنوا بها .. لم يفرضوه بسيوف أشهروها ولا بخيول أسرجوها .. لكن بإيمان رسخ في نفوسهم .. لم يكفروا به مذ اتخذوه شريعة .. ولم ينتهكوه تحت أي ذريعة ..

بذلك قمعوا أهم سبب للفناء في هذه الصحراء : " الطمع " .

إنهم يبحثون عن السلام .. وفي كل مرة يختارون نفس السبيل الخطأ .

هذا ما فاتهم أن يكتشفوه .. فاتهم الكثير وفقدوا من أجله الكثير .

6

كافئه الحكيم بابتسامة .. حافظ الزعيم على وجهه خالٍ من التعابير .. شعر بكاهله يتخفف من حمل طالما أثقله طيلة أيام رحلته .

أشار الحكيم بمروحته للشاب الجالس عن يساره ..

أغلال

يحرص التاجر على المساومة أكثر من حرصه على الربح ..

أهم درس للتاجر يتعلمه هو من الصفقة التي يفشل في إنجازها .

1

ربما كونه آخر المتحدثين عن تجربته ما زاده إرباكا .. حاول التخلص منه بابتسامة .. طرده بحمحمة استهل بها :

- لم تختلف بدايتي عن بدايات رفاقي .. كان اختياري لهذه المهمة ثقلا على كاهلي .. كان هدفي النجاح في مهمتي ليس من أجل النجاح في اختبار الحكيم ولا من أجل أن أحوز على ثقة الزعيم فحسب بل من أجل واحتي .

بدأتُ رحلة البحث من داخل الواحة .. كنتُ أبحث عن السر فيما يطلبه الآخرون في واحتنا ولا يجدونه عندهم .. بل بحثتُ عن الشيء الذي تتميز به هذه

الواحة ما جعل الحياة تسير فيها لمئات السنين دون اضطراب أو فتن ..

بقاء الواحة لم يكن بسبب ذودها عن حياضها من العدو المتربص بها من خارج أسوارها فحسب بل كان لقمع كل أسباب الخراب التي قد تنهشها من داخلها .. العدو القادم من خارجها من السهل التعرف عليه واتخاذ ما يلزم لرده وصده .. أما ما كان من داخلها فذاك هو الخطر الذي لا تعلم مكانه ولا مدى خطره ولا متى يشن هجومه ويقضي عليك .

كان بحثي في هذا وعن هذا .. غادرتُ الواحة بعد أن وقفتُ على الأمر .. لم يكن سفري من الواحة إلا للوقوف على تجارب أممٍ وممالك أخرى .. الإقتراب

منها ومن مواطنها يسهل من اكتمال الصورة التي رسمتها في ذهني .

رافقتُ قوافل الشمال وصلتُ لأمم البحر ..بعدها صحبتُ قوافل الجنوب لأقف على أمم الصحراء .. سافرتُ إلى الغرب حيث أمم الواحات وسكان الجبال .. كان سري يتجلى ..

فهمتُ الأمر على حقيقته .

بإمكانك مقارعة الخطر القادم من خارج الأسوار بالسيف ودفعه بالقتال .. ربما هناك من يمكن شراؤه بالمال .. أما الخطر الذي قد يجتاحك من داخلك فوسيلة رده واحدة إنها :

الشرائع .

2

تقول حكمة قديمة : "الكثرة مجلبة للخصام " .. احتياج الناس لبعضهم يزيد من فرص اختلافهم وشقاقهم ... وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى اقتتالهم أيضا كلما احتاجوا لبعضهم أكثر في مفارقة عجيبة ..

منذ زمن بعيد احتاج الناس لقوانين تنظم سبل الحياة فيما بينهم .. كان من السهل وضع هذه القوانين .. انتظمت حياتهم وتوقفوا عن الخصام .. ولكن إلى حين !

اكتشفوا بعدها أنه كذلك من السهل انتهاكها ..

سارت الركبان بحكمة تداولها الغوغاء منذ زمن قديم :

" ما وضعت القوانين إلا لتنتهك " ..

كانوا حريصين على انتهاكها أكثر من حرصهم على احترامها .. في احترامها قيد أما في انتهاكها لذة .. كان الإنسان يتلذذ دائما بكل ما هو ممنوع .

كان من الواضح أنه من الصعب انقياد الغوغاء بسهولة .

3

الإنسان بحاجة لكثير من الروادع ليسير على الجادة ويستقيم أمره ويُتقى خطره وشره .. فأخطر شيء على الإنسان هو نفس الإنسان الأمارة بانتهاك المحظورات .

الناس بحاجة لقيود تكبح جماحهم وجنونهم وتنظم حياتهم .. أرسل الله الرسل يبلغون تلك الشرائع

المطلوبة مصحوبة بالمعجزات .. هذه الشرائع والروادع لو جاء بها غير الرسل لما لاقت قبولا ..

تقبلها الإنسان ولكن إلى حين .

هذا الإنسان له قدرة عجيبة على ابتكار أعذارٍ تبرر له اختراق الشرائع حتى لو كانت سماوية .. فكان لابد من ردعه بمزيد منها فاخترعوا ما يعرف في عرفهم :

" الأعراف ".

ليس لنقص في الشرائع أو قصور .. بل لخلل فيمن تنطبق عليه تلك الشرائع .. حبه لنقض كل عهد واختراق كل محظور كان السبب .

استغل اكتشافه أن له القدرة على التنصل من العقاب الإلهي ولو إلى حين .. فاستهان بتلك الشرائع فخالفها سرا وجهرا .. فالإنسان طبع على الإستهانة بالمجهول .. فقالت عنه الحكماء في حكمة تناقلتها الأفواه :

" من أمن العقوبة أساء الأدب " ..

فكان لابد من تأديبه .

4

لتأديبه كان لابد من تقييده .. لم يكتفِ بالقيود الإلهية .. سن قيودا إضافية .. قيودا أرضية .. هي ليست أكثر إحكاما من السماوية لكنها أشد تضييقا وتكبيلا .

الشرائع السماوية تمتاز عن غيرها أنها تصلح لكل وقت ولكل مكان .. ميزتها أنك لا تستطيع الطعن في

مصدرها .. ما عليك إلا أن تتبعها صاغرا مذعنا .. ليس هذا ما يميزها فقط .. الأهم من ذلك أنها تمنحك فرصة للتراجع والتوبة عن الزلل وإصلاح الخلل ..

ميزتها الأهم أنها تسترك .. غايتها إصلاحك .

انكب الحكماء على إصدار الشرائع التي توفر قيودا إضافية للسيطرة على جموح الإنسان ورغبته الملحة على اختراق الشرائع الإلهية .. وضعوا قوانينهم مصحوبة بالعقوبات .. قوانين لا تغفر الزلل .. لا تؤجل العقوبة بل تعجلها .. فالإنسان كائن يخشى العقوبات الآنية ويستهتر بكل ما هو مؤجل .

القوانين الأرضية لا ترحم ولا تستر .. عكس تلك المرسلة من السماء .. بل تفضحك عند أول زلة .. لا تنتظر توبتك ولا أوبتك .. بل تصب عليك جام عذابها

على الملإ .. ليس لإصلاحك ولا لردع الآخرين فقط بل لأنها أرضية .

كائن أشد ما يخشاه الفضيحة .. لا يمكنك التعامل معه إلا بهذه الطريقة :

بالفضيحة .

5

ما يصلح في مكان قد لا يصلح في مكان آخر .. ما يصلح في الصحراء يستحيل أن يتلاءم مع أهل الساحل أو سكان الجبال .. سكان الواحات يختلفون أيضا عن غيرهم .. وسكان هذه الواحة يختلفون عمن سواهم فكان لابد من طرق مختلفة تخصهم هم وحدهم دون سواهم .

لم تكن روادع بقدر ما هي ضوابط .. يكفي تغيير الاسم لتقبلها .. فالردع غير الضبط ..

جلب الأسلاف لهذه الواحة كل ما يمكن الاستفادة منه .. وطوعوا كل ما لا يتماشى مع طابع أهلها بما يكفل نجاحه فيها .. لم تكن الشرائع استثناءً في ذلك .. كما أنهم ابتكروا من الشرائع ما من شأنه أن تسير الحياة سيرا طبيعيا خاليا من المنغصات ..

نزعوا عن الشرائع صبغتها المنفرة التي جبلت النفس الإنسانية على رفض كل ما هو مفروض عليها وبذل كل جهد لانتهاكه .. جعلوا منها طقوسا لا شرائع

تقبلوا الحيلة قبولا حسنا .

6

الطقس قيدٌ أيضا .. لكنه قيد ناعم .. مقبول .. لا يجبرك على ترك فعل ما .. بل يحثك على ارتكاب فعلٍ ما .. النفس تنفر من الترك لكنها تتقبل الأمر بالفعل .. صارت حياتهم اليومية طقوسا ترتكب وليس شرائع تنتهك .

ميلادك طقس .. زواجك طقس .. نومك طقس .. موتك طقس .. سيرك في الأزقة طقس .. جلوسك على المصاطب طقس .. لهوك طقس .. عبادتك طقس .. خصامك طقس .. أفراحك طقوس .. أعيادك طقوس .. أحزانك طقوس .. تعاملاتك اليومية طقوس متشابكة متداخلة .

شيدت الواحة بالطين وزينت بالطقوس .. صارت حصنا لا يُخترق .. الإخلال بطقس ما هو إخلال بمنظومة كاملة من طقوس .. هذا ما يجعل من منتهك الطقس منبوذا ..

النبذ أشد أنواع العقاب وقعا على النفس .

النبذ نفي .. النفي سجن .. أضيق سجون الدنيا .. النبذ سجن في الزمان لا في المكان ..

تم تحصين الإنسان بالشرائع السماوية وحماية الواحة بالطقوس الأرضية .. هذا ما فشلوا في احتماله .. هذا ما لا يجدونه إلا هنا ..



العرش

"عليك أن تحسن بناء العرش وإلا سينهار فوق رأسك ذات يوم"

1

انتزع حظه من رضا الحكيم بابتسامة لم تختلف عما منحها لرفاقه .. عدّ ذلك كافيا ومشجعا .. احتفظ الزعيم بملامحه الصارمة .. كانت الشمس قد تسللت من تمانحت البيت مغادرة لمبيتها المعتاد .. توقفت مروحة الحكيم كذلك عن استجلاب الهواء .. التفت إلى الزعيم :

- ما قولك ؟

تحرك لأول مرة .. توقف عن تأمل رسوم الوسادة قائلا :

- الرأي للحكيم .. هو صاحب الاختبار .

عاد يتأمل الوجوه المتحمسة .. بقايا ضوء النهار الشحيح كان كافيا لقراءة صفحات وجوههم من جديد .. بحث فيها عن زعيم .. قرأ بين سطورها هذه المرة أشياء لم تكن بادية قبل إجراء الاختبار :

- يبدو أن سفركم أتى أكله .

أمّن الزعيم بهزة من رأسه :

- هذه إحدى حسنات السفر التي أدمنها أهل الواحة منذ استوطنوا هذه الأرض .

أشار الحكيم بمروحته للشباب .. غادروا البيت .. استوى الحكيم في قعدته .. واجهه الزعيم مستويا أيضا .. متخليا لأول مرة عن الوسادة المزخرفة قال الحكيم ممازحا :

- عليك أن تموت مطمئنا ههه ههه هههه هه

استجاب لمزحة قرينه :

- هل وقع اختيارك على أحدهم لزعامة الواحة ؟

- أولا علي تهنئتك على حسن اختيارك لهؤلاء .. لن أسألك عن سبب اختيارهم دون غيرهم .. لكني لمست حكمتك في الاختيار من خلال ما حدثونا به عن تجربتهم .

- هل ارتضيت أحدهم لزعامة الواحة ؟

- لو وضعت أي أحد في مكاني لاعترف بالحيرة .. ربما وقع فريسة سهلة للمحاباة .

- لكنك الحكيم وأنت صاحب الاقتراح ولست أي أحد .. سنواتك الكثيرة وحكمتك ستكون دليلك نحو الإنصاف .. هل أقنعك أحدهم لزعامة الواحة ؟

- لا تكمن الصعوبة في اختيار واحد من الأربعة .. بل في أنك ستتخلى عن ثلاثة يستحقون اختيارك لنفس المنصب .

- الحكيم العجوز يحتار لأول مرة هههههه هههه هذا دليل على أن السنين تمكنت منك هه هههه ههه.

- يا صديقي للعمر أحكام نجهلها .. إنه يجعلك أكثر حكمة وأكثر ترددا أيضا هه هههه .

- أوافقك الحيرة أيضا .. أعلم صعوبة المهمة وهذا ما جعلني ألجأ إليك لنجد لها حلا معاً .. قرأتُ في الوجوه الشابة حماسة .. فطنة .. وحكمة أيضا .

- في الوجوه ترتسم معالم زعيم هذا لا يخفى حتى على من يشكو ضعفا في البصر .. ربما هناك غيرهم في الواحة وهذا ما أخشاه .

- تخشاه ؟

- الزعامة والرياسة حسناء .. يخطب ودها الجميع .. يرغبون في وصالها .. ليس هذا فحسب بل يسعون إلى امتلاكها واحتكارها .. لا أحد يرضى بشريك في عشقه لمحبوبته كذلك .

تنهد الزعيم وزفر قبل أن يؤمّن على كلامه .. فقال متسائلا :

- صدقت فالزعامة حسناء .. حسناء لعوب .. يعتقد من امتلكها أنه امتلك كل شيء في حين أنه فقد كل شيء حتى نفسه .

تناول الحكيم مروحته .. مروح بها قليلا قبل أن يضيف :

- هذه الدنيا تتغير وتتبدل .. سيأتي اليوم الذي لا يطيق فيه الناس أن يحكمه نفس الشخص لسنين طويلة ومديدة

.. طُبع الناس على الملل حتى من الأشياء الحسنة .. من الحكمة أن نمهد لهذا اليوم قبل قدومه .

- صدقت .. هل ارتاحت نفسك لأحدهم وتراه يصلح زعيما للواحة ؟ .

- رأيت في وجوههم أربعة زعماء .. ليس أشلّيدُ واحد بل أربعة شُلدان .

- أربعة شُلدان !

- كلهم يصلح زعيما .. اكتسبوا خبرات كثيرة في رحلتهم .. أعلم يقينا أنها ستفيد الواحة كثيرا في حاضر أيامها .

- أربعة زعماء !

- بحثُنا كان عن أشلّيد واحد نلقي على كاهله بثقل المسؤلية .. فها نحن نقف أمام أربعة زعماء .

- أخشى عليهم من سحر الحسناء وإغوائها .. هذا ديدن الحسان .. السحر أولا ويتبعه الإغواء .. فيليه السقوط .

- الزعامة حسناء لعوب .. أما الحكمة فعجوز شمطاء لا يأبه لها أحد .. لا تغوي أحدا سوى الكهول .

- ما أخشاه عليهم أن تسلبهم الحسناء لبهم .. هذه الحسناء هي سبب آخر من أسباب زوال أمم بأسرها .. اختفت .. لم يعد لها وجود .. بعضها ترك لنا ما يذكرنا بزوالها .. بعضها الآخر عجزت حتى عن ترك هذا الأثر .. اكتفت بالاختفاء في صمت .. لا أمان لمثل هذه الحسناء أن تقع في يد من لا يحسن إكرامها فتودي به وبالواحة إلى المهلكة.

- أخشى أن تغريهم حسناؤك ذات يوم .. حينها ستدوس الأقدام الشمطاء فيتنازعوا فيفشلوا فتذهب ريحنا ..

- لو فشلت في إغرائهم الآن فربما تنجح في إغراء من سيأتي بعدهم ..

- هل لك حل لهذه العقدة ؟.. كيف نوفق بين العجوز والحسناء الزعامة والحكمة .

مروح طويلا .. لم يكن يبحث عن هواء بل عن حل .. تابع بقايا النهار المنصرم من فتحة السقف ..

- علينا قطع طريق الإغواء وسد بابه ..

أضاف بعد برهة صمت :

- لا ينفع أن يحكم هذه الواحة شخص واحد ..

أوقف مروحته عن طلب الهواء .. أشار برأسها إلى الأعلى :

- بل رأي واحد .
- ما الحل لهذه العقدة ؟
- الواحة بحاجة لرأي حكيم وليس لزعيم حكيم .
- كيف تقمع الحسناء ؟
- حسناؤنا يجب أن تكون الحكمة لا الزعامة والرئاسة.
- أفصح !
- هؤلاء الشباب الأربعة هم قوائم لعرش الزعامة .. سنبني بهم مستقبل الواحة .. ربما ذات يوم تحتاج الواحة لأكثر من أربعة قوائم .
- أفصح .

- سنشيد عرشا للحسناء .. قوائمه التجارب .. وقوامه الإخلاص للواحة .

وقف الزعيم .. ساعد الكهل على الوقوف :

- كنت أعلم أني أرمي الثقل عن كاهلي في المكان الصحيح هههه هههه .

سارا نحو السقيفة .. أذن مؤذن الجامع الكبير لصلاة المغرب .

تمت بحمد الله

راس لانوف 26 نوفمبر 2014 م

إبراهيم عبدالجليل الإمام

كاتب وقاص وروائي وباحث تاريخي ..

من مواليد جوهرة الصحراء غدامس عام 1970 م ..

خريج كلية تقنية الطيران والارصاد الجوية ..

نشر قصصه في صحف مختلفة منها صحيفة العرب اللندنية وصحيفة توفرضا ، صحيفة غدامس ، صحيفة الحقيقة ، صحيفة الأيام ، صحيفة المختار ، صحيفة الأسبوع ، صحيفة قورينا ، صحيفة الناس ، صحيفة صناع الكلم ، صحيفة فسانيا ، كما نشر انتاجه القصصي في العديد من المواقع الالكترونية .

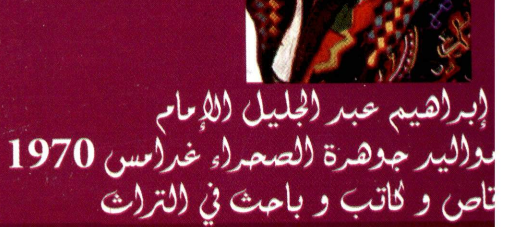
صدر له :

قطرات من ذهب	قصص وأساطير
الآم وآمال	قصص ومواقف
جمهورية العسل	مجموعة قصصية
سلطان يوم الماء	قصة مصورة
لها طلع نضيد	قصة مصورة
تحرير غسوف	قصةُ مصورة
أشليد	رواية
الشاغت	رواية

يصدر قريبا :

كنز الاسلاف	رواية

المطبات	من الادب الساخر
رسالة من الرجل الميت	رواية
آيت انج	قصة
آيت أدّا	رواية
أمم أمثالنا	مجموعة قصصية
بوابة الصحراء	مجموعة قصصية



إبراهيم عبد الجليل الإمام
مواليد جوهرة الصحراء غدامس 1970
قاص و كاتب و باحث في التراث

ما يصلح في مكان قد لا يصلح في مكان آخر .. ما يصلح في الصحراء يستحيل أن يتلاءم مع أهل الساحل أو سكان الجبال سكان الواحات يختلفون أيضا عن غيرهم ..
وسكان هذه الواحة يختلفون عن من سواهم،
فكان لابد من طرق مختلفة تخصّهم هم وحدهم دون سواهم .

